إبراهيم عبد التواب..
شيخ الشهداء

الشجاعة فى مواجهة الأعداء والظالمين.. قبس من إرادة الله.. يقذف به فى قلوب أولى العزم من البشر.. فتمتلئ خلاياهم إرادة وعزيمة.. وتفر المخاوف من قلوبهم.. ويصبحون «قذائف الحق» التى تنفجر دوما فى وجه الأعداء والظالمين.

.. وقد امتلك الشهيد البطل إبراهيم عبد التواب كل أسباب الشجاعة.. ولكنه آثر دوما أن يحلق بجناحى التقوى والشجاعة.. فمنذ صباه الباكر وكل من حوله يطلقون عليه لقب «الشيخ» وفى قلب المعارك والأهوال ظل ذلك اللقب لصيقا به.. كان حريصا فى كل الأوقات والأحوال.. على أن يظل المصحف الشريف فى جيبه.. والمسبحة فى يده.. وأداء الصلوات فى أوقاتها.

وقبل أن تجرفنا وتبهرنا عطاءات وبطولات البطل الشهيد إبراهيم عبدالتواب.. نعود لنبدأ من حيث يجب أن تكون البداية.. وتحديدا من قلب صعيد مصر.. حيث ولد إبراهيم عبد التواب فى إحدى قرى أسيوط لأب تقى ورع يحظى بمحبة كل أهل القرية.. وواصل الفتى تعليمه حتى التحق بالمدرسة الثانوية فى مدينة المنيا.. وقد تركزت كل أهدافه فى الالتحاق بالكلية الحربية ليكون ضابطا بين صفوف جيش مصر العظيم.. خاصة بعد أن جاءت ثورة يوليو ١٩٥٢م لتجعل من أهم أهدافها إنشاء جيش وطنى قوى.. وشعر الفتى الصعيدى بسعادة لا توصف عندما التحق بالكلية الحربية.. ليتخرج فيها عام ١٩٥٦م.. ومنذ بدايته كضابط صغير اكتشف كل من حوله أنه مثال للأخلاق والشهامة والتسامح والتواضع الشديد.. كما لاحظ كل من حوله أنه شديد التدين..

يقـرأ القرآن كثيرا.. يحرص على أداء الصلـوات فى أوقاتها.. ويتبعها دوما بكثير من الأدعية والتسـابيح.. حتى اشـتهر بين زملائه وجنوده بلقب «الشيخ».. ولعل هذا النموذج يؤكد على أن الجيش المصرى لم ولن يكـون أبدا ضد «تدين» أبنائه.. ولكنه ضد التوظيف السياسـى للدين.. ذلك النهج الذى تنتهجه جماعات الإسلام السياسى مثل الإخوان.. وهو نهج يدعو إلى الفرقة والتفتيت.

والتحـق البطل إبراهيم عبد التواب منـذ البداية بقوات الصاعقة.. وذلك لما يمتلكه من المؤهلات والقدرات التى يتطلبها العمل فى القوات الخاصـة.. واسـتطاعت قوات الصاعقـة أن تكون فى طليعـة المقاومة والمواجهة مع العدو الصهيونى.. خلال حرب الاستنزاف.. والتى بدأت بعد هزيمة يونيو بخمسة وعشرين يوما فقط وتحديدا فى الأول من يوليو ١٩٦٧م بمعركـة رأس العش التى قام بها رجال الصاعقة، وقد شـارك البطل إبراهيم عبد التواب فى العديد والعديد من العمليات الخاصة ضد قوات العدو الصهيونى شـرق القناة طوال فترة حرب الاستنزاف والتى اسـتمرت حتى الثامن من أغسـطس عام ١٩٧٠م عندمـا قبل الرئيس عبدالناصر مبادرة روجرز.. وذلك اسـتعدادا لوضع اللمسـات النهائية للمعركة الفاصلة مع العدو.. ولكن سـرعان مـا رحل عن دنيانا الزعيم جمـال عبدالناصـر فى ٢٨ سـبتمبر ١٩٧٠م.. وجرت فـى النهر مياه كثيرة.. وظل البطل إبراهيم عبد التواب فى رحلة الترقى والصعود حتى تولى رئاسـة أركان إحدى مجموعات الصاعقة.. ثم أصبح قائدا للكتيبة ٦٠٣ صاعقة.. وقد حرص على أن يشرف بنفسه على تشكيل الكتيبة..

واستكمال ما تحتاجه من الأفراد والمعدات.. كما كان حريصا على أن يحصل ضباطه على كل الفرق التدريبية التى تزيد من قدراتهم وخبراتهم وتجعلهم أهلا للمناصب التى يشغلونها.. كما كان حريصا على أن يقوم بنفسه بإعداد طوابير التدريب التكتيكى حتى يتأكد من أن كل فرد قادر على تنفيذ المهام التى يكلف بها.. وبعد كل هذا الجهد أصبح كل فرد فى كتيبة البطل إبراهيم عبد التواب يتحرق شوقا لليوم الذى سيواجه فيه العدو للثأر واسترداد الأرض والكرامة.. وفوجئ الجميع بزلزال السادس من أكتوبر ١٩٧٣م.. وجاءت التعليمات للبطل إبراهيم عبد التواب باجتياز البحيرات المرة واقتحام نقطة كبريت – وهى قرية تقع شرق البحيرات –.. وفى الرابعة والنصف من عصر السادس من أكتوبر تحرك البطل على رأس كتيبته.. ونجح فى اجتياز البحيرات المرة.. ليجد أن أعمدة التليفون على شريط السكة الحديد تعوق حركة الصواريخ المضادة للدبابات.. فتم تكليف الملازم أول عبدالرازق شامة ومعه بعض جنود الكتيبة بتدمير بعض هذه الأعمدة.. وبالفعل نجحوا فى تدمير ١٥ عمودا.. ولكنهم اكتشفوا وجود نقطة ملاحظة للعدو.. فسارعوا باقتحامها وقتل أحد جنود العدو ليفر الآخرون.. كما تم الاستيلاء على رشاشين والكثير من الصور والوثائق.. وتحركت الكتيبة ٦٠٣ بعد ذلك على طريق «الطاسة» ثم طريق «الممرات» لتهاجم وتستولى على المدخل الغربى لمر «متلا».. والتحمت الكتيبة مع قوات العدو فى قتال شرس أجبر مدرعات ودبابات العدو على الفرار.. بعد تكبدهم الكثير من الخسائر فى الأفراد والمعدات..

وفى اليوم التاسع من أكتوبر صدرت الأوامر بضرورة مهاجمة واحتلال النقطة الحصينة فى كبريت.. ووضع البطل إبراهيم عبد التواب خطته المحكمة.. والتى تعتمد على اقتحام النقطة الحصينة من اتجاهى الشرق والجنوب بقوة سرية مشاة.. على أن تقوم باقى قوة الكتيبة بعملية عزل وحصار من جميع الجهات لمنع تدخل احتياطيات العدو لإنقاذ النقطة الحصينة.. وعلى بعد ٣ كيلو مترات من نقطة كبريت دارت معركة شرسة مع قوات العدو.. تدخل فيها الطيران الصهيونى بقوة.. إلا أن حكمة وحنكة البطل إبراهيم عبد التواب مكنته من قيادة قواته بكل البراعة والاقتدار.. لتفادى وقوع الخسائر بين قواته.. وفى الوقت نفسه تكبيد قوات العدو أكبر الخسائر.. وأمام هذا الهجوم الكاسح انهارت قوات العدو.. وانسحبت مذعورة خلف التباب القريبة.. لينطلق خلفها رجال إبراهيم عبد التواب فى مطاردات عنيفة.. مكنتهم من تدمير كل دبابات العدو.. ليتم اقتحام نقطة كبريت الحصينة.. وتطهيرها وتفتيش جميع دشمها وملاجئها.. وليرتفع علم مصر خفاقا عاليا فوق هذا الموقع المهم الذى كان مقرا مهما لجزء من قيادة العدو.. كما يكتسب موقع كبريت أهميته من كونه ملتقى الطرق العرضية شرق القناة.. ويمكن من خلاله السيطرة على جميع التحركات شرق وغرب منطقة كبريت.. كما أنه نقطة الاتصال بين الجيشين الثانى والثالث المصريين.. كما أنه يقع فى أضيق منطقة بين البحيرات المرة الصغرى والكبرى والمسافة بين البرين الشرقى والغربى ٥٠٠ مترا فقط.. ولكل هذه الأهمية حاول

العدو مرارا وتكرارا إعادة السيطرة على نقطة كبريت.. واستخدم العدو الطلعات الجوية بكثافة حيث كان يقصف الموقع بقنابل زنة ١٠٠٠ و٢٠٠٠ رطل ليحول أرض الموقع إلى جحيم حقيقى.. كما استخدم العدو القنابل العنقودية.. وبالتوازى مع الطيران كانت مدفعية العدو تقوم بإمطار الموقع بقذائفها والتى حولت لون الرمال من الأصفر إلى الأسود.. وبعد المدفعية تبدأ الدبابات القصف المركز على الموقع.. وكان البطل إبراهيم عبد التواب يواجه كل هذا برباطة جأش وشجاعة نادرة.. ويترك العدو يلقى بقنابله وقذائفه حتى يظن بأن الموقع قد انتهى بكل ما فيه ومن فيه.. وفجأة يخرج الأبطال من خنادقهم ليزلزلوا الأرض تحت أقدام دبابات العدو.. وتحول هذا السيناريو إلى روتين يومى.. ولجأ البطل إبراهيم عبد التواب إلى تكتيك بسيط ومؤثر، حيث اعتمد على مهاجمة قوات العدو بدوريات صغيرة مكونة من ضابط وأربعة جنود فقط أثناء الليل.. وقد أدت هذه الغارات إلى بث الرعب والفزع بين قوات العدو.. مع تكبيدهم خسائر فادحة.

وأمام الفشل المتوالى لقوات العدو فى اقتحام أو تدمير موقع كبريت بعد أن سيطر عليه البطل إبراهيم عبد التواب ورجاله.. عمد العدو إلى فرض حصار رهيب على الموقع.. لعزل الكتيبة ٦٠٣ عن بقية الجيش المصرى.. وقطع كل خطوط التموين عن أفرادها.. وكان قادة العدو على قناعة بأن ذلك الحصار الرهيب سيدفع البطل إلى إعلان الاستسلام الفورى.. فكيف سيحارب أو يقاوم من دون أن تأتيه إمدادات المياه

والطعام والذخيرة.. وبعد أن تأكد العقيد إبراهيم عبد التواب بأن الحصار قد صار حقيقة واقعة جلس على الفور بين ضباطه وجنوده ليضع خطة العمل لمواجهة هذا الحصار وتفادى أضراره.. وتعاهد كل أفراد الكتيبة على عدم التفريط فى الموقع إلا على جثثهم.. وتم وضع نظام حديدى للتعامل مع رصيد المياه والطعام من خلال تحديد مقننات متساوية لكل فرد من أفراد الكتيبة.. وكم ضرب البطل إبراهيم عبد التواب المثل والقدوة عندما كان يتنازل عن نصيبه من المياه والطعام للأشد احتياجا من رجاله.. وطوال فترة الحصار الذى طال بأكثر مما يحتمل أى إنسان.. حيث استمر لمدة ١٣٤ يوما، كان البطل إبراهيم عبد التواب حريصا طوال الوقت على رفع معنويات جنوده بأن يقف أمامهم إماما فى كل الصلوات.. وأن يخطب فيهم أيام الجمع ليحثهم على الصمود وعلى نيل شرف النصر أو الشهادة.. كما كان يرفع معنوياتهم بتذكيرهم ببطولاتهم طوال فترة الحصار.. وكيف استطاعوا تدمير عشرات الدبابات للعدو بل وأسر بعض جنوده.. وكانت صلابة القائد إبراهيم عبد التواب وقوة إيمانه وقودا دائما لشحذ همم رجاله الذين سقط منهم العديد من الشهداء والجرحى.. ولكنهم ظلوا دائما على العهد بأن العدو لن يدخل الموقع إلا على جثثهم. وإنتصر رجال البطل إبراهيم عبد التواب على (العطن) بجهاز التقطير الذى إبتكره الملازم صبرى هيكل.. والذى يعمل على غليان مياه قناة السويس بالنيران ثم تبريد بخار المياه بالمياه إيضا ليتحول إلى مياه عزبة.. كما تم الإنتصار على (الجوع) برحلات الموت

التى كان يقودها النقيب عصام هلال والملازم سيد حرب إلى قيادة الفرقة السابعة غرب القناة إلى أن إكتشف العدو هذه الرحلات وأوقفها.

وقد حاول العدو تقديم العديد من الإغراءات لكى يشجع الأبطال على ترك الموقع.. ومن ذلك عرضه بأن يتركوا الموقع بكل أسلحتهم حتى لا يقال إنهم قد استسلموا.. ومع ذلك رفض البطل إبراهيم عبد التواب كل العروض التى قدمها العدو.. وأعلنوا أنهم لن يتركوا تلك النقطة الحصينة.. وبرغم وقف القتال فعليا يوم ٢٨ أكتوبر ١٩٧٣م بعد فشل العدو الصهيونى فى اقتحام مدينة السويس إلا أن نقطة كبريت الحصينة ظلت تمثل وجعا خاصا للعدو، فواصل حصاره العنيف.. وتواصلت غاراته على الموقع وفى المقابل واصل البطل إبراهيم عبد التواب الصمود والمقاومة.. وفى الرابع عشر من يناير ١٩٧٤م كان البطل يقود جنوده فى مواجهة إحدى غارات العدو لتنفجر إلى جواره دانة مدفع وتخرج منها شظية تصيب البطل ليسقط شهيدا وسط جنوده..وأستشهد معه ضابط الدفعية وأربعة من جنودة كما أصيب ثلاثة آخرون بجراح خطيرة ليتذكر رجاله وصيته لهم بأنه سيموت شهيدا، وعليهم أن يدفنوه فى نقطة حددها بنفسه داخل الموقع.. وعليهم أن يلفوه بعلم مصر ذلك العلم الذى احتفظ به طوال فترة الحصار.. وكان يقول لكل من حوله لا بد وأن تلفونى فى هذا العلم عندما أسقط شهيدا.

صمم رجال البطل إبراهيم عبد التواب على مواصلة الطريق الذى بدءوه مع قائدهم.. حيث رفضوا ما رفضه القائد الشهيد من قبل من عروض مثل الاستسلام تحت إشراف الصليب الأحمر أو الانسحاب

بكامل السلاح.. وكانوا على يقين بأن تسليمهم يمثل خطورة فادحة على الجيشين الثانى والثالث. حيث كان العدو يهدف من وراء إقتحام كبريت إلى إنشاء معبرا لقواته بعيدا عن نيران المدفعية المصرية وتكوين قطاع إختراق طوله ٢٢ كيلو متر من الدفرسوار إلى كبريت لمحاصرة قوات الجيشين الثانى والثالث غرب القناه وواصل أبطال كبريت السير على القواعد التى وضعها البطل الشهيد فطعام المقاتل يكفى الكثيرين فبعد أن كان يكفى خمسة صار يكفى عشرة ثم خمسة عشر مقاتلا.. بما يعنى أن كل بطل من هؤلاء الأبطال كان تجسيدا للحديث النبوى الشريف «حسب ابن آدم لقيمات يقمن صلبه».. بل إن هؤلاء الأبطال وطوال فترة الحصار الطويل.. قد قاموا بالعديد من المغامرات شديدة الخطورة للحصول على أية كمية من الطعام أو المياه.. وكانوا طوال الوقت يهدفون إما إلى النصر الحاسم أو الشهادة. وفى يوم ٢٠ يناير ١٩٧٤م يصل أول إمداد إلى كبريت بواسطة الصليب الأحمر وفى ٢٧ يناير توافق مصر على سحب العدو مدرعاته المدمرة.. والتى بلغت ٢٧ دبابة ومركبة مدرعة.. حيث إشترط العدو سحب خسائره بعيدا عن أعين الصحافة حتى يفك الحصار عن كبريت وفى يوم ١٢ فبراير ١٩٧٤م ينسحب العدو بعد حصار إستمر ١٣٤ يوما.

وقد تحول أبطال ملحمة كبريت إلى علامة فارقة فى تاريخ العسكرية المصرية.. وكانت صحف الكيان الصهيونى تتساءل فى كل يوم كيف استطاع هؤلاء المصريون الصمود طوال هذا الوقت من دون مياه أو طعام.. ولماذا لم يستسلموا.. وكيف كانت تأتيهم القوة لتجعلهم يبادرون بالهجوم؟.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك بل إن هنرى كيسنجر وزير الخارجية الأمريكى أثناء حرب أكتوبر ومهندس عمليات التفاوض ما بين مصر والكيان الصهيونى قد قال عن ملحمة كبريت «إنها إحدى المعارك الكبرى التى شرفت العسكرية المصرية.. ووضعتها فى مكانة متميزة بين جيوش العالم».

إنها الشجاعة.. ذلك القبس المنير من إرادة الله.. والذى قذف به إلى قلب الشهيد البطل إبراهيم عبدالتواب.. فجعله يقود هذه الملحمة البطولية الرائعة.. والتى ستجعل التاريخ ينحنى دوما إجلالا وتقديرا واحتراما لهذا البطل العظيم.. والذى يحلق الآن فى جنات الخلد بأجنحة الشهداء.. بعد أن حلق فى الدنيا بجناحى التقوى والشجاعة.

❑❑❑